ASJP Algerian Scientific Journal Platform
مجلة دفاتر مخبر الشعرية الجزائرية
ISSN : 1112-9727 EISSN : 2676-1661
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/459

المجلد: 06، العدد: 02 (2021) ص: 198 – 215

النص التعليمي بين المرجع ومقومات الهوية "قراءة في نصوص المرحلة الابتدائية" "كتابي في اللغة العربية للسنة الخامسة من التعليم الابتدائي أنموذجا"

Educational text between the reference and elements of identity "Reading in primary`s school texts " "my book in Arabic for the fifth year of primary school as a model"

د. بهلول شعبان*
جامعة سعيدة – الجزائر–
chaabanedahabi@gmail.com

د. مولاي الطاهر
جامعة الجزائر

معلومات المقال

تاريخ الإرسال:
2021 /05 /11
تاريخ القبول:
2021 /06 /26

الكلمات المفتاحية:
- ✓ النص
- ✓ الكتاب
- ✓ المتلقي
- ✓ الهوية
- ✓ التعلم

الملخص:

يتناول هذا المقال عن طريق الوصف والدارسة والتحليل مكونات الكتاب المدرسي للسنة الخامسة من التعليم الابتدائي بهدف الوقوف على محتوياته من النصوص وقيمتها المعرفية ومرجعياتها، كما يحاول من جانب آخر الكشف عن طريقة إعداد هذا الكتاب وانتظامه من حيث الشكل، ومعرفة آليات المنهج المختار للمقاربات النصية من خلال استقراء طبيعة الأسئلة المطروحة وكيفية بناء المقولات التعليمية.

Article info

Received
11/05/2021
Accepted
26/06/2021

Keywords:
- ✓ *Text*
- ✓ *Book*
- ✓ *Recipient*
- ✓ *Identity*
- ✓ *Learning*

Abstract :

This article deals with the components of the fifth year primary school`s book in a descriptive way studying its texts contents scientific value, and its background. In addition to this, it tries to discuss the way it is prepared in terms of form, content, and its approach through its types of questions and citations.

* **المؤلف المرسل:** بهلول شعبان

مقدمة

إنّ الهدف من هذه المقال يتمثل في أنّه يقوم بدراسة مكونات الكتاب المدرسي؛ عنوانا ونصا ومنهجا دراسيا، فكتاب التلميذ بكل مكوناته، وفي كل أطوار المدرسة الجزائرية يعدّ المرجع الأساسي والأول في تكوين التلميذ، إذ يستهدف كيانه الفكري والعقائدي والنفسي والاجتماعي، ولذلك يُشَكِّلُ الكتاب مصدر معرفته وأخلاقه وتصوّراته، وهنا تكمن خطورة هذا المؤلَّف، لذلك فإنّ مرحلة بناء محتوياته وطرائق عرض مضامينه تقتضي أن تكون نابعة من هوية المجتمع وتراثه، وأنّ قراءة نصوصه، وآليات تحليلها يتوجب أن تتشكل وفق نظرة هذا المجتمع للإنسان والحياة والكون والقيم والوطن.

يجد المتعلم نفسه أنّه في مواجهة قراءة تلك النصوص، وهو بلا شك قد يتأثر بمحتوياتها بطريقة مباشرة أو غير مباشرة، والمؤكد أنّ انعكاساتها ستظهر في حياته لاحقا من خلال فعل نتائج ذلك التأثير الذي سيكون في مستقبله القريب، والمتعلم في هذه المرحلة، وهو في طور التّعلم والتكوين والإعداد لما تتكوّن لدية بعد آليات النقد والرفض.

أما فكرة البحث جاءت لتقوم بمسح دراسي للتعرف من قريب على المعمار النصي لهذا الكتاب من خلال التنقيب في خلفياته الفكرية وهوية نصوصه، ذلك أنّ وضع محتويات الكتب المدرسية، ولاسيما الأدبية منها والإنسانية والاجتماعية تحتاج أن يتولاها الأمناء من أبناء هذه الأمة، أولئك الحريصون على تحصين المجتمع من الذوبان والانسلاخ، وتجنيبه خطر عوامل التعرية الفكرية، والنحت العقائدي، والانسلاخ الأخلاقي، وحمايته من أسباب طمس معالم التميز والتفرد، وصيانة الخصوصيات من الانحلال، والحفاظ على مكونات الشخصية من التشويه والزلل .

إنّ الهدف من وراء ذلك، هو تأمين الأجيال والوطن، والعمل على بعث التراث، وتطويره وتنميته بما يخدم عصر المتعلمين، لا رفضه أو التبرؤ منه، والغاية هي الحفاظ على التراكم العلمي والمعرفي والأدبي، واستمرار التواصل بين الأجيال، والاستفادة من التجارب العلمية والإبداعية المتصاعدة عموديا والمتطورة أفقيا ليزداد البناء صلابة وقوة، ويتحدى كل الهزات الطارئة، تلك التي تهدد وجود الأمة وكيانها وقيادتها وتأثيرها، ذلك أنّ أي خلل في هذه المحتويات سيخلق أجيالا مقطوعة الجذور مطموسة المعالم، وقد تتنكر مع الزمن لماضيها وتراثها مستسلمة لِعَدُوِّها، منهارة أمام عتباته.

يأتي هذا المقال ليقف على إشكالية النص والمنهج والهوية، ومدى التكامل بينها في تكوين المتعلمين عقليا ووجدانيا ووطنيا وثقافيا، فهل يحقق الكتاب المدرسي بصورته الحالية شكلا ونصا، وتحليلا ودراسة، وغلافا وألوانا أهداف وطموحات الأمة؟ هل يحافظ على قيمها وتراثها وإنتاجها؟ هل تُحَقِّقُ المناهج تكوينا إيجابيا؟ إذ ينتقل عبرها المتعلمون من جمال النص إلى جمال النفس والكون، ثم إشاعة الحياة الجميلة بأبعادها اللغوية والإنسانية والدينية، وهل تحقق هذه المناهج تواصلا بين الأجيال؟ هل تتَّبع استراتيجية علمية في الاستفادة من إبداعات الكتاب والمؤلفين قديما وحديثا؟ كيف تعاملت مع النص العالمي ترجمة وتوظيفا؟ ماهي سندات المراجع النصية؟ ما الهوية التي تشكلها هذه النصوص في نهاية المطاف؟

تكمن أهمية هذا المقال في أنه يقوم بتسليط الضوء على العناوين (عناوين الكتب–عناوين النصوص ومضامينها)، وذلك عن طريق اكتشاف الخلفيات –إن كانت–خلف هذه التقنيات، ونخص بها تلك المعايير المعتمدة، ومراجع الوضع، فهل هي خاضعة للمعايير العلمية والتعليمية التي يراعى فيها الإشهار والتشويق والعتبات والمراسي؟

أما منهج الدراسة يقوم على مقاربة إجرائية تشخيصية لمضمون الكتاب المدرسي عن طريق الجمع والنظر والدرس من خلال عمليات إحصائية قائمة على الحساب النسبي وبطريقة علمية استكشافية وذلك باتباع مجموعة من الإجراءات التطبيقية على الكتاب المدرسي.

يمثل كتاب التلميذ ((كتابي في اللغة العربية-2016/2015)) الموجه لتلاميذ السنة الخامسة ابتدائي النسخة الأخيرة التي أصبحت في متناول التلاميذ والأساتذة معا، تلك التي عرفت إصلاحا جذريا يكون قد وقف فيها الملاحظون والمراجعون على كل الأخطاء، كما أنها النسخة التي تمثل في نهاية المطاف مرحلة إصلاحية متقدمة وفق البرنامج الرسمي، ومع أنّ المرحلة الابتدائية في بنائها ككل المراحل في أهدافها الإجرائية، وكفاءاتها المستهدفة تتأسس في استراتيجياتها على مرحلة بداية، ومرحلة نهاية، ولذلك وقع الاختيار على مرحلة الوصول الختامية للطور الثاني، وجسر العبور لمرحلة الطور الثالث، إذ يمثل كتاب التلميذ في هذه المرحلة حوصلة نصية للمتعلمين، وعلى هذا الأساس، وبناء على ما سبق من الأسئلة البانية للإشكالية اخترنا هذا الكتاب ليكون أرضية إسقاطيه لتحليل الإشكالية ومكوناتها.

1. النص بين الأبعاد التكوينية والأدبية

لقد تحولت حياة الأمة العربية -منذ أن منّ الله عليها بتحمل الرسالة الخالدة -من حياة الرعي والترحال إلى مرحلة النص والقراءة والتأويل والإبداع والفكر، ذلك أنّ " القرآن نص لغوي يُمْكِنُ أن نصفه بأنه يمثل في تاريخ الثقافة العربية نصا محوريا. وليس من قبيل التبسيط أن نصف الحضارة العربية الإسلامية بأنها حضارة ((النص))، بمعنى أنها حضارة أنبتت أسسها، وقامت علومها وثقافتها على أساس لا يمكن تجاهل مركز ((النص)) فيها"(نصر حامد أبو زيد، 2008، 9).

إنّ حياة النصوص مرهونة بالتكثيف القرائي، وحركة التأويل التي تمثل الوجه الأخر لبعث النصوص، واستثمارها في الإنتاج والمعرفة، وصناعة الحضارة، ولذلك جاء النص بكل أشكاله في المنظومة التربوية كرفيق لمراحل المتعلمين ليصبح رافدا ومعينا، وآلية إنتاجية لصناعة القيم، وتكوين الأفراد، واستراتيجية لبناء الأوطان، فـ" الإنسان يقضي حياته محاصرا بالنصوص، يحرّرها، ينتجها، يلعب بها، يستهلكها، يتزين بها، فمن المقررات المدرسية، إلى الوثائق الإدارية إلى النصوص الثقافية والعلمية، إلى المدونات المختلفة، وكل نوع من هذه النصوص يتطلب عناية خاصة، وكيفية محددة في فهمه وتلقيه، وطريقة مخصوصة لتفكيكه، وتحليل شفراته، وأنساقه السيميائية، وفي كلّ مرة يواجهنا النص بعنفه، وإغراءاته يترك فينا انطباعا مبهما" (حسين خمري، 2007، 9)، وفي إطار هذا التصور تبرز أهمية النصوص على اختلاف أشكالها، وأنواعها ومقاصدها في بناء الأفراد والمجتمعات، وصناعة الحضارات، ذلك أنّ أي أمة بلا نص، فهي أمة لا وجود لها، ونص بلا تأويل لا حياة له، وحضارة بلا إبداع لا جمال لها، فما حظوظ هذه الرؤية النصية في الكتاب المدرسي؟

2. النص بين المفهوم والتوظيف

يشكل مصطلح النص أحد المفاهيم اللسانية والسيميائية الأساسية، وقد أنشئت حوله علوم عديدة مثل: نظرية النص، ولسانيات النص، والسيميائيات النصية، بل يعتبر مادة أساسية ومشتركة بين عدة علوم، وقد مرَّ مفهوم النص عبر التاريخ والثقافات بمرحلة ساهمت في تطوير مفاهيمه ودلالاته من خلال التراكم الثقافي والمعرفي، وكُلمَّا تغيرت النظرة إليه مبنى وشكلا تغيرت مفاهيم وآليات تحليله ودراسته، فالنص في مرحلة السبعينيات غيرها في مرحلة الأساسي، وغيرها في مرحلة التدريس بالأهداف الإجرائية والمقاربة بالكفاءات والجيل الأول والثاني، وهذا يتطلب منا دراسة أخرى تقف على التطور المعرفي لمفهوم النص اختيارا ودراسة.

يختلف مفهوم النص من أمة إلى أخرى، فمفهومه في التراث العربي قد ارتبطت دلالاته بالنص القرآني، ومن حيث دلالاته اللغوية؛ فهو يعني الظهور والوضوح والرفع والإسناد والتحريك، وبلوغ أقصى الشيء وإدراكه، ويمكن القول أن الدلالة المستحدثة أخذت من القديم واستندت إليه، ثم اختلفت عنه مفهوما وتوظيفا، "وقد غذت هذه الدلالة الكثير من الحقول المعرفية كالأصول والنحو، أما في التراث الغربي فقد دلت في التراث اللاتيني على النسيج وشدة التنظيم وبراعة الصنع، أو أنه يوحي بالجهد والقصد، أو لعله يوحي –أيضا– بالكمال والاستواء بينما يدل الأصل في اللغة العربية على الاستواء والكمال، وعلى النسيج، وهو نفس المصطلح اللغوي، كما جاء في لسان العرب بأن النسيج يعني ضم الشيء إلى الشيء والحبك، ولذلك يمكن القول أن أصل الاشتقاقين في اللغتين العربية واللاتينية يؤديان معنى بلوغ الغاية والاكتمال، وجودة الصنع وشدة التنظيم" (ليندة قياس، 2009، 18-19)، وعلى هذا الأساس تشكل المفهوم الجديد لمصطلح النص، فـ"معناه العربي لا يختلف كثيرا عن الدلالات التي تنطوي عليها مادة ((TEXT)) التي تحمل معنى البناء والنسيج والسياق، وهي دلالات حركية دينامية" (ليندة قياس، 2009، 18-19).

لقد تولدت عن هذه النظرة، باعتبار النص نسيجا محكما مفاهيم جديدة، على رأسها ما أورده رولان بارت ((Barthes.R)) لنظرية النص، إذ أشار إلى أن كلمة " ((نص ((Texte)) ((تعني النسيج، وهذا النسيج هو عبارة عن نتاج وستار جاهز يختفي وراءه المعنى، ويُرَكِّزُ بارت في تعريفه للنص على الفكرة التوليدية التي ترى أنّ النص يصنع ذاته، ويعتمل ما في ذاته عبر تشابك دائم، تنفك الذات وسط هذا النسيج الضائعة فيه " (رولان بارت، فؤاد الصفا، حسين سبحان، 1988، 62-63)، ولذلك فإن منهج الدراسة في كتاب التلميذ ينطلق من هذه الأساسيات التي تراعي بناء النص وتماسكه وارتباطه وتشابكه، وعموديته وأفقيته، وتعالقه ووحدته وكليته، فمعظم الأسئلة التي يواجه بها الكِتَابُ التلميذَ بعد أن يكون قد تواصل مع النص لا تخرج عن هذه الرؤية التي تبحث في كيان النص بناء وهيكلا وترابطا.

عَرَفَ مفهوم النص تطورا تاريخيا مُهِمًا بحكم التراكم الثقافي وتنميته، فالنظريات المعاصرة قد اعتبرته" بنية منغلقة تنطوي على معنى ثابت ومحدد، والذي لا تبرز فيه فاعلية التناص" (عمر عبد الواحد، 2003، 39) ، أما الدراسات اللسانية فقد نظرت إلى النص على أنه أرضية أو جسر للتواصل العمودي والأفقي، "وإذا كان النص أثرا للغة، وشكلا من أشكالها المرتبط ببعض استخدامات الكلام، فينبغي بذلك أن يكون مفهومه الأساسي أنه وسيلة لنقل الأفكار بين المتخاطبين، فالهدف من دراسة النص بوصفه مظهرا من مظاهر استعمالات اللغة هو تحسين الاتصال بين البشر" (ليندة قياس، 2009، 20)، ذلك "أنّ المبرر الأكبر للدراسات اللغوية هو تحسين التواصل" (مصطفى ناصف، 1995، 241).

إذا عرجنا على كتاب التلميذ فنجده في كل الأطوار التعليمية، وفي كل التخصصات ينطلق من النص بغض النظر عن طوله أو قصره، إذا كان هدفه إقامة التواصل بين الأجيال، ذلك أن مسألة الحجم أو الطول، لم "تعد مهمة لدى اللسانيين والسيميائيين أن يكون النص مُقَيَّدا بطول مُحَدَّدٍ، إنما اشترط اكتمال دلالته"(ليندة قياس، 2009، 32)، هذا إذا اعتبرنا النص" وحدة إيديولوجية"(جوليا كريستيا، فريد الزاهي، 1997، 21)، إلا أن الملاحظة التي يمكن أن نسجلها على كتاب التلميذ أنه أسقط عملية التواصل في جانبها العمودي، ولذلك أمامنا ما يقارب الثلاثين (30) نصا بلا هوية فكيف يمكن لنا أن نحقق تواصلا بواسطة نصوص مجهولة المصدر أو الهوية أو صفة المنشئ؟

إنّ الدراسات التداولية أصبحت تركز على عناصر المدونات النصية التي تتأسس وفق المنظور التواصلي الإبلاغي والإيديولوجي والقصدي، وضرورة أن يكون هناك مرسل ومرسل إليه، "وأمام المفاهيم المتعددة نجد أنّ هناك بعض المقاربات اللسانية النصية قد وضعت بعض الخصائص والملامح التي تحدد النص"(ليندة قياس، 2009، 23-24).

حدّدت الدراسة العربية المعاصرة النص بربطه بسياق الإنتاج وبمستقبله تجدُّدًا وخبرة ضمن عملية تواصلية، فهو "مدونة كلامية، وأنه حدث يقع في زمان ومكان معينين يهدف إلى توصيل معلومات، ومعارف ونقل التجارب إلى المتلقي" (مُحَمَّد مفتاح، 1992، 120)، ومن حيث بنيته ومعناه وتحدده فهو: " شبكة من المقولات اللسانية والبنيوية والإيديولوجية تَتَحَدَّدُ وتَتَّحِدُ فيما بينها لتشكل خطابا، فإذا اكتمل نسجه أثَّر تأثيرا عجيبا من أجل إنتاج نصوص أخرى، فمقروئية النص تضفي على النص التجدّدية والتعددية، ويصبح النص قابلا للعطاء والتجدد بتعدد عرضه للقراءة"(عبد الملك مرتاض، 1992، 57).

تقوم دراسة النصوص على أساس التحليل الترابطي لتحقيق الفهم الكلي بحسن استخدام المعايير، والدوران في فضائي الاتساق والانسجام اللذين يعبران عن الربط الأفقي النحوي، والترابط المنطقي الدلالي، والهدف هو الوصول إلى دراسة قائمة على النظرة الشمولية للنص، لذلك فإن الدراسة اللسانية أصبحت تراعي جملة من الخصائص كالتماسك والمقاربة بين المستويات اللغوية المختلفة، والأجزاء المشكلة للنص في إطار التلاحم والتكامل والملامح الجمالية.

تكمن أهمية الإحاطة بمفاهيم النص المتعددة وبمذاهبها وحقولها المعرفية، في مجالها النظري أنها تُحَدِّدُ الإطار الدراسي للمقاربات النصية، وبما أنّ كتاب التلميذ مجموعة من النصوص كما حددها المؤلفون واختاروا له وصفا وضع على صفحة غلافه ((رياض النصوص)) أو كما عنونوه كذلك بـ ((كتابي في اللغة العربية)) تبدأ دراستنا بمقاربة تنظر في مكونات هذا الكتاب.

3. صناعة العتبات النصية بين الوظيفة الإبداعية وانتظام النصوص

تمكننا الدراسات السيميولوجية من الوقوف على مكونات الكتاب والتعرف على مختلف جزئياته وتفاصيله، فلقد أدّى هذا إلى تبلور مفهوم التفاعل النصي وتحقّق الإمساك بمجمل العلاقات التي تصل النصوص ببعضها البعض، والتي صارت تحتل حيزا هاما في الفكر النقدي، إذ "لم تكن العتبات تثير الاهتمام قبل توسع مفهوم النص، ولم يتوسع مفهوم النص إلا بعد أن تمّ الوعي والتقدم المعاصر، فكان التطور في فهم النص والتفاعل النصي مناسبة أعمق لتحقيق النظر إليه باعتباره فضاء، ومن ثم جاء الالتفات إلى عتباته"(عبد الحق بالعابد، 2008، 13) ، إن تلك الإشارات الموضوعة قبل مباشرة النص كانت وفق استراتيجية فرضها تقديم الكتاب، وبعناية وقصد، إذ تجعل المتلقي في حالة من الاكتشاف والتلذذ البصري، والتوسيع الخيالي فتوحي إليه بدلالات ومعان، " فالكاتب أو المؤلف وهو ((يكتب)) كلماته أو ((يؤلف)) بينها ((يبني)) عوالم نصه وفق كيفية ما: محاكيا بناءات موجودة، أو مبدعا، في نطاق الممكن النوعي، طرائق جديدة في ((تنظيم)) بنياته النصية التي يتشكل منها النص الذي ((يبدع)) وفق رؤيته لعمله الإبداعي، أو تبعا لضرورات تشكيل المعنى، فطريقة التنظيم هذه، وعملية البناء تلك، وهي تضعنا أمام هيئة مخصوصة يتخذها النص، تسلمنا إلى حد كبير، إلى ضرورة الانتباه إلى أشكال ((انبناء)) البنيات النصية وتحققها." (عبد الحق بالعابد، 2008، 14).

إنه من الأخطاء المرتكبة عند بعض القُرَّاء هو القفز على هذه العتبات، أو المرور عليها مرّ الغافلين، سواء أثناء مرحلة الإعداد والتشكيل، أو عند مرحلة القراءة والتأويل، وقد بينت الدراسات النقدية المعاصرة قيمتها التأويلية والجمالية، ذلك أنها تؤسس لميثاق يحفظ القراءة من الزلل المحتمل كما أن العتبات النصية المختلفة؛ ((التصدير// العنوان// التقديم// المقدمة// الإهداء// كلمة الناشر.)) تشكل علاقات

رابطة بينها، ذلك أنّه و" انطلاقا من معاينة بداية النص وصولا إلى نهايته نجد أنفسنا ننتقل بين البنيات في تجاورها وتباعدها، وفي تآلفها واختلافها، وأخيرا في انتظامها لتكوين ذلك الكل: النص "(عبد الحق بالعابد، 2008، 15).

إن وضع العتبات النصية، ووضع خطوات التعرف عليها، وإدراك ماهيتها ووظائفها يقينا حتما من القراءة المتعثرة، فـ" كل هذه العمليات تجعلنا نرى النص بناء، لا يمكننا الانتقال بين فضاءاته المختلفة دون المرور على عتباته، ومن لا ينتبه إلى طبيعة ونوعية العتبات يتعثّر بها، ومن لا يحسن التمييز بينها، من حيث أنواعها وطبائعها ووظائفها، يخطئ ((أبواب)) النص" ((عبد الحق بالعابد، 2008، 16))، كما أنّ النص في غالب الأحيان لا يأتي عاريا، فهو في حاجة إلى تغليفات ولبوسات تطبعانه وتميزانه، وتحددان نوعيته واتجاهاته، وهي بمثابة الأيقونات القابلة للقراءة والتأويل والانفتاح الدلالي، ولهذا فعلى القارئ قبل المرور إلى النص يتوجب عليه أن يدخل مع المناصات في مساءلة طويلة، وحوارات مختلفة الأوجه، ومناورات، وجدلية للوصول إلى عقد ميثاق لأنّ تلك المناصات ماهي إلا نصوص موازية، إذ يقصد " بمصطلح المناص((paratexte))، أي ذلك النص الموازي لنصه الأصلي، فَالْمَنَاصُ نَصٌّ، ولكن نص يوازي النص الأصلي،.. وهو انتقال من شعرية النص إلى شعرية المناص"(عبد الحق بالعابد، 2008، 28)، وقد لا ينتبه المتعلم في هذه المرحلة لأهمية العتبات النصية، ومن ثم يتوقف هذا الإجراء بالدرجة الأولى على الأستاذ عن طريق توجيه أسئلة دقيقة وموحية تتضح من خلالها الهويات المشتركة، والمرجعيات المتداخلة للنصوص المشكلة.

تضمن كتاب التلميذ خمس مناصات هي كالآتي: ((صفحة الغلاف// مقدمة// كيف تستعمل كتابك// التوزيع السنوي للمحتوى// إلى صغيري))، وحتى ننبه إلى أهمية هذه المناصات والعتبات، فمن أجل ذلك أردنا أن نقف على طبيعة هذه العتبات بدءا من صفحة الغلاف، إذ سيتم التركيز في هذه الدراسة على المناصات، ذلك أنها نمط من أشكال المتعاليات النصية، والشعرية عامة تقع على عاتقها وظيفة تعريف النص، وتقديمه لجمهور القرّاء استقبالا ودراسة، فالمناص هو؛ « كل ما يجعل من النص كتابا يقترح نفسه على قرائه أو بصفة عامة على جمهوره، فهو أكثر من جدار ذو حدود متماسكة، نقصد به هنا، تلك العتبة بتعبير (بورخيس) البهو الذي يسمح لكل منا بدخوله أو الرجوع منه"(عبد الحق بالعابد، 2008، 43) ، كما يطلق على كل الخطابات التي تسبق النص ماصات، " فهي مجموعة الافتتاحيات الخطابية المصاحبة للنص أو الكتاب "(عبد الحق بالعابد، 2008، 44).

1.3. صفحة الغلاف بين جماليات اللون وأفق المتلقي

إن أول احتكاك بصري لغلاف الكتاب يقع فيه نظر التلميذ على بعض الحيزات النصية تتقاسمها صفحة الغلاف، إذ نجد أربع حيّزات نصية، ففي أعلى الكتاب تتوسطه هوية الأمة بأبعادها الاجتماعية والسياسية والوطنية: ((الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية))، ثم تليها في السطر الثاني الجهة المشرفة على هذا الإعداد ((وزارة التربية الوطنية))، ومن الجهة العليا من الغلاف، وعلى يمينه داخل قرص أخضر، وباللون الأصفر، وضمن التشكل الأدبي جاء العنوان بلبوس تعبيري إيحائي ((رياض النصوص)) بأبعاد طبيعية، وفي وسط صفحة الغلاف جاء تعريف الكتاب بحس الانتماء النصي التكويني واللغوي، وحتى الاجتماعي ((كتابي في اللغة العربية))، وفي أسفل الغلاف يتحدد مستوى المحتويات ((للسنة الخامسة من التعليم الابتدائي))، وعلى الجهة اليسرى شغلت خمس رسومات بشكل عمودي فراغات محددة فصلت بخط من الأقراص الصغيرة على شكل عمودي من الجهة العليا إلى غاية الطرف الأسفل من الصفحة، وهذه الصور مستنسخة من صور الكتاب الداخلية، منها ما له علاقة بنصوص الحكاية، وهي إشارة إلى سيطرة النص السردي، واثنتان؛ تعبران عن طبيعة المجتمع الجزائري وتقاليده.

تمثل الألوان الركن البارز لصفحة الغلاف، وقد تنوعت بين الأحمر الذي يشكل الخلفية الكلية بمقاييس المستطيل، ثم يأتي اللون الأخضر في الدرجة الثانية وفي شكل أربعة أقراص، وواحد بخلفية كبيرة، كما يظهر اللون البرتقالي بدرجة أقل، وبثلاثة أقراص صغيرة بنفس مقياس الأقراص الخضراء، استعمل اللون الأصفر للكتابة، أما اللون الأبيض فقد استخدم للكتابة فقط وبدرجة أقل.

تبعث هذه المكونات اللونية جملة من الرسائل، إذ تشكل في النهاية خمسة ألوان تنوعت وظائفها، فمنها ما استخدم للكتابة، ومنها ما شغل حيزا مكانيا، يكاد اللون الأحمر يهيمن على الغلاف بمساحاته وخلفياته، فأمّا عن دلالاته فمتعددة ومتباينة ومتضادة وحسب المعرفة الدلالية للألوان فإن رمزيتها المتباينة قد تصادم أفق المتلقين في هذه المرحلة، وقد لا تناسبهم في بعض الخصائص إذ "يتحدى الأحمر المسافة، لذلك هو لون هجومي يرمز إلى القوة والقدرة والصمود"(ساسين عساف، 1982، 30) ، "ومن ثم صار لونا للأشخاص المتصفين بقوة الشعور؛ إذ أنه حي وحركي، فهو لون الدم الذي يمثل الحياة للإنسان، وهو رمز القوة والشباب المتفجرة حيوية، ويدل على الحب الحارق، وهو أقوى الألوان لفتا للنظر "(إبراهيم دلخي، 1983، 69).

إنّ للون الأحمر القدرة على الإثارة والإقبال وتعجيج المشاعر والأحاسيس، فهو يدل على "الحركة والحياة الصافية والمبدأ الخالد والشهوة والحب والنشوة العرضة" (كرم أنطوان قطاس، 1949، 93) ، ومن ثم أصبح شعار الثورة والتضحية، وقد اختير لونا من ألوان الأعلام، وذلك" لدلالته على سفك الدماء والتضحية بالحياة تعبيرا عن الشجاعة الحارقة؛ فبهما تكمن رغبة المحاربين في تقوية معنوياتهم وإثارة حماسهم لرهبة العدو ودفعه إلى الهزيمة"(إبراهيم دلخي، 1983، 82).

إذا كانت هذه الدلالات تصب في جهة ثورة الطبائع والعنف والقوة، فإن لهذا اللون وجها أخر، فهو دلالة "الحب والفرح والسرور" ، (مُحَمَّد يوسف همام، 1970، 09) ومن حيث الطمأنينة والسكون والرقي والإلهام، "فهو اللون الأكثر دفئا وحيوية وهياما"(زينب عبد العزيز العمري، د.ت.ط، 19) ، كما أنّ هذا اللون يحوز عالمية الإشهار والانتشار، إذ يعدّ "من بين الألوان جميعها انتشارا، وهو اللون المثير الذي يسترعي انتباه الجميع ويحوز إعجابهم وقد دعي بحق- اللون العالمي" (سمير شيخاني، 1984، 133)، كما يتميز ببعث البهجة والسرور في النفوس الكئيبة، وهنا يتوجب تدخل الأستاذ لتوجيه مشاعر وعواطف المتلقين نحو إيجابية هذا اللون، وفي كيفية تناسبه مع الألوان المجاورة، من خلال ربطه بلون العلم الوطني وتضحيات الشهداء الأبرار لإقامة نوع من تواصل الأجيال عبر جسور جمال الألوان لترسيخ الهوية الوطنية.

أمّا اللّون الأخضر فهو "لون الخصبة، لون الأمل والحياة المقبلة، الباعث على الطمأنينة والسكون والراحة"(شامل عبد الأمير كبة، 1992، 71)، ولذلك فقد شغل هذا اللون حيزا من العلم الوطني، وهو لباس أهل الجنة، فهو "رمز التوافق والانسجام بين أصحابه، وذلك بسبب طبيعته المتوافقة مع أغلب الألوان"(محي الدين طالو، 1991، 171-172)، كما أنه "رمز الحياة والتجدد والانبعاث الروحي والربيع"(سعد عبد الرحمن قلج، 1975، 44)، وإذا كانت إرادة الخالق –سبحانه وتعالى- قد جعلت من اللون الأخضر في الطبيعة لونا سائدا ومهيمنا، فإذا فتشنا في ذلك وجدنا أنّ اللون الأخضر "هو لون الطبيعة، المنعش الرطب المهدئ يوحي بالراحة، ويدخل السكينة ويضفيها على النفس" (يحي حمودة، 1979، 136)، كما توحي رمزيته إلى أرض الجزائر المتنوعة بتضاريس جبالها الخضراء.

أمّا اللون الأصفر فقد اختير للخط الذي يحدّد قيمة الكتاب، فهو يقاسم شخصية المتعلم بعنوان أصلي: ((كتابي في اللغة العربية))، والأصفر" هو من الألوان الفاتحة القريبة من النفس، وهو لون تفكيري ذو أبعاد نفسانية بعيدة عميقة ورائعة"(ساسين عساف، 1982

130،)، وصاحبه شديد الإحساس، فهو مهدد دائما بفقدان صفاته وميزاته، وهو ما يجعله ذا صفة حركية وتعددية في علاقاته، فهو لون الحسد والغيرة، كما يعني الخيانة والأمومة العزباء والعهارة والشر"(إبراهيم دلمخي، 1983، 96) ، وهو من جهة أخرى "رمز الغش والخداع"(مُحَمَّد الدين طالو، 1991، 170)، والاستهزاء "ويعني التشتت وعدم تركيز الاهتمام؛ لذلك يتصف أكثر محبي اللون الأصفر بهذه الصفات. ومع هذا فإنه يعني التفاعل والمشاركة والتفكير، ويشكل مع الأحمر مجموعة تتصف بالعظمة والصخب والقوة، كما أنه رمز للحبوب الناضجة والذهب "(إبراهيم دلمخي، 1983، 68).

يمثل الأصفر لون الصحراء لهذا أحبه العرب، ورمز به إلى معاني العتق والنقاء والشرف"(كتائب حسن عبود الدوري 2003، 13)، وهو نفسه "اللون الملكي في الصين"(مُحَمَّد الدين طالو، 1991، 171) ، "ولون اليأس والآلهة الإناث والمكان والعذارى عند الإغريق"(إبراهيم دلمخي، 1983، 96) ، ومع ذلك يرمز إلى أصحابه" بالخطر والدهاء والجبن والخسة والخيانة وعدم الأمانة"(فرج عبو، 1982، 136) ، كما أنّه لون " المرض والانقباض، ولقد ارتبط الأصفر بشعر الحزن والتبرم من الحياة والتحفز نحو عالم أطهر وأمثل" (كرم أنطوان قطاس، 1949، 94) ، وكما أشرنا سابقا، يتوجب على الأستاذ في هذا المقام كذلك توجيه المتلقين إلى الرمزية الإيجابية التي قد توحي إلى صحراء الجزائر الواسعة، تلك التي أرادت فرنسا الاستدمارية إخراجها من دائرة المفاوضات لولا حنكة الساسة الجزائريين في تلك الفترة.

أمّا اللون البرتقالي فهو اللون الثالث من حيث الهيمنة على غلاف الكتاب فهو" لون الاطلاع والوصول العلائقي والسيطرة الجنسية، وهو لون الأصل إلى لحظة الوصول وبسبب من طبيعته التي تمزج بين الأصفر والأحمر امتلك خاصية الإشعاع الحيوي"(إبراهيم دلمخي، 1983، 97)، فهو متوسع " يزوّده الأحمر بسحنة الرصانة، وهو لون دافئ ومثير ويمتلك القدرة على الإيحاء بالرفاهة والغبطة "(فارس متري ظاهر، 1979، 54). إنّ اللون البرتقالي له مقدرة "على أن يبعث الحرارة والدفء العاطفي بوصفه ممثلا لموضوع النار، وغروب الشمس وأشعتها الذهبية ذات الجمالية المتوهجة التي تشع منها التأثيرات النفسية الدالة على التأجج والاحتدام المشتعل، وهي تلك التأثيرات المحثة المنهضة، والباعثة على الحركة والأمل(يحي حمودة، 1979، 130).

يأتي اللون الأبيض بدرجة أقل وقد اختير لكتابة ((الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية)) و((للسنة الخامسة من التعليم الابتدائي)) "ويأتي اللون الأبيض في مقدمة الألوان فهو أساسها، فمنه تخرج الألوان جميعها، وهو يمتلك طاقات كبيرة"(صالح ويس، 2014، 124)، تلك التي جعلت منه لونا متمركزا، بل يعتبر جوهر الألوان، فهو رمز " لصفاء ونقاء السريرة والهدوء والأمل حيث الخير والبساطة في الحياة وعدم التقيد والتكلف"(فرج عبو، 1982، 137) ، وللون الأبيض أثر طيب على النفوس، إذ يترك فيها «جوا من الطهر المثالي الذي لا يبلغه الإنسان في رجسه ودنسه، وفي البياض هدآه وسكينة ولون من الفراغ والجمود" (كرم أنطوان قطاس، 1949، 95) ، ولذلك فإن ثقافة المجتمعات تتحكم في توجيه رمزيته، فهو عند المتدينين "رمز الفرح والسرور والنصر"(مُحَمَّد ونس همام، 1970، 170)، وربما يكون المؤلفون قد استوحوا هذا اللون من العلم الوطني إشارة إلى السلام، إن تنوع هذه الألوان وتداخلها وتجاورها لا شك أنها قد حققت نوعا من الجاذبية والتشويق، وأثرا في النفوس ولا سيما حينما يقوم الأستاذ بلفت انتباه التلاميذ إلى إيجابيات هذه الألوان في تركيزه تأويليا على المرجع والهوية.

2.3. المقولات العلمية وصناعة العنوان

لقد صار العنوان بنية نصية ومدخلا أساسيا لا يمكن تجاوزه أو تخطيه، ولفهمه ودراسته صارت الاستعانة والاستفادة من حقول اللسانيات والسيميائيات واجبة لإعادة قراءة التراث والتاريخ القديم قراءة جديدة تتماشى مع روح الإبداعات الجديدة للتمكن من إحداث قراءة فاعلة تتابع وتقارب الإبداعات، وهي تستثمر وتلتزم بالفكر العلمي والنقدي الحديثين، و" هذا ما يسمح بتحليل النصوص

تحليلا موضوعيا يقوم على استخدام مقولات السيمياء واللسانيات، من أجل عودة نقدية للمواد المقروءة، لمعرفة كيف تقوم العلامات المستخدمة في النصوص بالدلالة وتوليد المعنى " (فارس مسرحي، 2006، 111).

يتحدد مفهوم العنوان بأنه" سليل العنونة من حيث هو مؤشر تعريفي وتحديدي ينقذ النص من الغفلة لكونه الحد الفاصل بين العدم والوجود، والفناء والامتلاء. فأن يمتلك النص اسما، أي عنوانا (هو أن يحوز كينونة)"(خالد حسين حسين، 5) وقد "عدت العنونة هاجسا ملحا لصاحب النص، وهو يقدم نصه للقارئ نظرا للدور الخطير الذي يمارسه العنوان في العملية الأدبية إبداعا، والغواية المثيرة التي يبثها حول النص تلقيا، بمعنى أن العنونة جزء لا يتجزأ من استراتيجية الكتابة لدى الناص، ويعدّ من أبعاد الاستراتيجية لدى المتلقي في محاولة فهم النص وتفسيره"(خالد حسين حسين، 19) ، ومن خلال تقليب ألفاظ العنوان على الدراسة المعجمية تكشف القراءة الأولية عن الكثير من الدلالات التي يحملها العنوان بألفاظه الأربعة، ((كتابي في اللغة العربية))، فالكتاب هو ذلك المصور، فيه اللفظ بحروف الهجاء، المخطوط المستنسخ أو الصحيفة، ووصفه بالكتاب هو إضفاء مسحة تشريفية ذلك أن تسمية الكتاب تنطلق عرفا وتداولا من الكتاب المقدس المنزل من رب العالمين.

وصف هذا المقرر قديما بكتاب التلميذ، ثم استبدل بـ(كتابي) بإضافة ضمير المتكلم لإضفاء نوع من القرابة والانتماء والامتلاك، أما ((في)) تفيد معنى المصاحبة والتحديد، وتركيب ((اللغة العربية)) فيه من النسبية والخصوصية والتَّمَيُّز، إذ يجمع بين المخطوط المكتوب والصحيفة، ويحمل رسائل هامة تعكس فكرته ونظرته،" فالعنوان ضمن هذه الوظيفة يكتسب قيمة جمالية تقتضي الوظيفة الشعرية " (عبد الحق بالعابد، 2008، 85).

أحدث هذا الإغراء انفعالا وَجَدَ القارئ صداه في نفسه، فأحس بتأثيره وبسلطانه الإغوائي، فالعنوان فيه من الدعوة المبطنة لاستدراج المتلقي فكرة التجاور بين النص والعنوان، والصورة والامتلاك، وغير بعيد يستقر العنوان الجمالي ((رياض النصوص))، والرياض، جمع روضة، وهي أرض مخضرة بأنواع النبات، والجمع روض ورياض وروضات وريضات، و(روضات الجنات) أطيب بقاعها وأنزهها، والروضة بقية الماء في الحوض إلا أن المعنى يأخذ من الطبيعة ويستقر بها في الكتاب، فيجتمع الخيال والواقع من بداية صفحة الغلاف إلى نهايته. ويستمد هذا العنوان دلالته من القرآن الكريم ((فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ (15)) [سورة الروم]، وقد ورد في الحديث الشريف، عن أنس بن مالك –رضي الله عنه– أن رسول الله –صلى الله عليه وسلم– قال:" إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا. قالوا: وما رياض الجنة؟ قال: حلق الذكر"، [رواه الترميذي وقال حديث حسن غريب]، وكلها دلالات توحي بتذوق النصوص جمالا، ومتعة بصرية، وهوية أدبية، ذلك أن معظم النصوص تركز على الطبيعة والكون وعناصرها، فالطبيعة رياض المتعلم المادي، وما يلبث المتلقون أن ينهوا دراسة النصوص كلها إلا وقد أنشأوا مع عالم الطبيعة والخلائق كلها علاقة صداقة بكل معاني الكلمة.

يشعر المتلقي أنه قد اكتسب رفيقا جديدا يحمل ميسما ذا وجهين، يجتمع فيه الواقع بالخيال؛ حرفية المعجم ودلالة المعنى، فالوجه الثاني يحمل تلك الشحنات ذات الدلالات الفياضة، تتجه نحو النفس فتقبع فيها فتتحرك مع الجمال والصورة، ولذلك فالعنوان من خلال تلك الاستعارات يجسّد مشهدا شاخصا يعكسه ذلك التجاور بين الأدب والفن، والحقيقة والصورة، ومن ثم ينفتح الفضاء الدلالي والجمالي انفتاحا واسعا على الكثير من القيم،" ذلك أن المتلقي لن يصل إلى هذه المعاني الثواني (الاستعارية) إلا بتجاوز المعاني الأولى المباشرة، وذلك من خلال قيامه بعملية (تأويل) لهذه الصورة البلاغية. هكذا تحض (الاستعارة) المتلقي على التفاعل مع النص، وتحليل صوره، فينفصل عن الخطاب العادي اليومي، وهو يفاجأ باستعارات ومجازات تثير في ذهنه مجموعة من ردود الفعل التي تنتهي بتذوق المتعة الجمالية في الأدب "(محمّد عزام، 2007، 129).

فالقارئ، ومن نافذة هذا المنظور سَيُفَعّلُ نشاطه الخيالي، وسيكون له لقاء مع الجمال والأدب، والمشاركة الوجدانية، إذ يُستَدرَجُ المتلقي منذ لحظة اللقاء إلى عالم من الأدب والصورة، لذلك فالعنوان يمثل منذ الوهلة الأولى انفتاحا من خلال صورته الفنية، فيشعر القارئ أنه في حاجة إلى التزود بخبرة من الثقافة المكتسبة، " فالعنوان يُعدّ الواسطة المركزية في عملية ربط الخطاب الموجه إلى القارئ بنقطة ارتكاز موجهة تظل تلاحق وعي القارئ وتوجهه، وتجمع شتات تأويلاته إلى دائرة محكمة بأطر الموضوع والمجال المعرفي والثقافي" (عمارة ناصر، 2007، 168).

تعمل هذه الوساطة بكل مكوناتها على استثارة أفق المتلقي ليجمع بين الخبرة الثقافية والإبداعية، ذلك أنهما في كل لحظة تساومان القارئ وتراودانه حسب درجات وطبقات الثقافة المتنوعة، فـ" بمقدار ما يكون العمل الأدبي مفتوحا فإنه يتجلى في نفس المتلقي، بحيث يعطي كل قارئ للعمل بُعْدًا يتفق مع مستوى قدراته الثقافية والنفسية "(مُحَمَّد عزام، 2007، 214-215).

إذا أردنا أن نضع العناوين المختارة لهذه النصوص في ميزان المعرفة السابقة، ومدى استجابتها لتلك الشروط تبين لنا بعد مسح قرائي خاطف وقفنا فيه على جملة من الملاحظات الملفتة التي يمكن تسجيلها على عناوين النصوص، إذ وجدنا في حالات كثيرة أنه لم يراع في صناعتها تلك الشروط التي ذكرناها سلفا، ولم تشكل هوية نصية بمرجعية واضحة، فقد اتسمت بالعمومية، وافتقدت إلى الجمالية والأدبية، أو هي أقرب ما تكون إلى الفكرة بدل العنوان الدقيق الذي يقصد به تشكيل وعي نصي يُختَزَنُ في الذاكرة، ذلك الذي يساعد على استرجاع النص وقت الحاجة التعبيرية، وتكون له القدرة على إثارة الذاكرة عند عملية الاستدعاء المناسب للمواقف، وكلما كان العنوان دقيقا في اختياره وتشكيله كان في الذاكرة أرسخ، وفي العقل أوثق، وفي العواطف والمشاعر أثمر.

أما المناصات الأخرى فقد تدرجت عتباتها بعد صفحة الغلاف بخطاب المقدمة الذي يمثل عقد قرائيا وميثاقا توجيهيا، أمّا عن وظائف المقدمة، فهي تساهم في تحريك عمليات التلقي وتأسيسها، كما تمثل تَنْبِيهًا وتهييئة وتوجيها للقارئ إلى خلاصة الأهداف والغايات، والتأسيس لبنية الكتاب شكلا ومضمونا، ومنهجا وتأليفا ودراسة وتصورا وهوية، " فالمقدمة من خلال هذه الاستراتيجية تسعى إلى توجيه القراءة وتنظيمها، كما تسعى إلى تهييئة القارئ لاستقبال مشروع قيد التحقيق" (عبد الرزاق بلال، 2000، 15).

جاءت المقدمة بصيغة النكرة ((مقدمة))، وإن من أهدافها أن تضع المخاطبين على سكة استراتيجية صناعة هذا الكتاب من أجل الاستشعار بالمشاركة والتفاعل النصي، ولذلك حرص المؤلفون من خلال كلمات مركزية صناعة الوعي بالأهداف والغايات، ومن ذلك دمج مفاهيم نصية وأفقيه مثل؛ (خط الإصلاح// المقاربة النصية// المقاربة بالكفاءات// التنوع// الانفتاح//الجمالية// الأدبية// السياق// الانسجام// التحليل// التجريد // المحسوس// المصطلح النحوي// المعجم والدلالة- الكتابة- التواصل- القراءة- التعبير- النظام اللغوي- المقاصد-)، والناظر في هذه المصطلحات، ومع أنها نابعة من التطور المعرفي الذي يُمْكِنُ أن يُمَكّن الناشئة من امتلاك أداة لغوية سليمة تساهم في بناء شخصيتهم إلا أنّ المفارقة غير المنتظرة، أن هذه الأبعاد لا تتوافق في كثير مع ما جاء بين طيات هذا الكتاب، والدليل في ذلك أنّ هذا التلميذ الذي يصل المرحلة الجامعية، قد انتهى به المطاف التعليمي إلى هذا الطور، وهو لا يمتلك أداة لغوية تمكنه من الحوار وإدارة النقاش وبناء الأفكار، أو كتابة نصوص إبداعية، وهو إخفاق ملحوظ يقف عليه كل متتبع للشأن التربوي والتعليمي بين الواقع والمأمول.

تأتي العتبة الثالثة في الصيغة الاستفهامية الإنشائية وفق نظرية أفعال الكلام ((كيف تستعمل كتابك؟)) ومن خلال مقولات توجيهية تحقق وظيفة الدليل لتأمين عمليات القراءة والتأويل بوضع مخطط استشرافي توجيهي، وبهذه العتبة يتحدد إطار الأهداف والغايات ويمكن عرضها مرتبة كالآتي: ((1- الأهداف التي يجب أن تحققها-2- رقم المحور-3- صورة تعرفك بالمحور-4- عنوان النص-5- صورة

تساعدك على فهم النص-6- هذه أسئلة تساعدك على الفهم والتعبير-7- نص يساعدك على التفكير في اللغة وتحليلها- 8- هذا ما يجب أن تتذكره دائما-9- تمارين تدريبية-10- تكتشف المشروع الكتابي 11- تماريت تساعدك على إنجاز المشروع-12-شبكة لتقييم نفسك-13- في هذه تتعرف على نصوص أصلية -14- صفحة تتمتع فيها بمحفوظات جميلة-15- هذه الصفحة تساعدك على المراجعة والتقييم)) وهذه مكونات المحور وهي المقولات التي تتأسس عليها العملية التَّعْلِيمِيَّة التَّعَلُّمِيَّة ونشاطاتهما الأدبية واللغوية، وما يمكن تسجيله في هذا المقام استعمال ضمير المخاطب بشكل مكثف بحيث لا تخلو مقولة تَعْلِيمِيَّة تَعَلُّمِية منه، وبأفعال محددة ومختارة ومكررة، لها أثرها في عمليات التلقي ((يجب:(2)- تحقق:(1)- تعرّفك:(2)- تساعدك:(5)- تكتشفك:(1)- تتمتع:(1)- تقيم:(1)))، ثم يلي ذلك العتبة الرابعة التي تضع المخطط السنوي مفصلا لتعليم التلميذ قيمة النظام والتخطيط والاستفادة من استثمار الوقت وتوزيعه في إطار استراتيجية استشرافية (التوزيع السنوي للمحتوى). ينفتح الخطاب في العتبة الخامسة على الدفء الإنساني، والقرب التربوي التعليمي، وبروح الجمالية الأدبية، وعلى طريقة الافتتاحيات في المجلات العلمية والأدبية توحي بطريقة إعداد هذا الكتاب، وكأنه مجموعة من المقالات ذات القاسم المشترك، وأنّ مُحَرِّرِي هذا الكتاب قد سحبوا من المجلات افتتاحية المحرر إلى القرّاء عبارات؛ ((ستجدون، أو من قبيل ستقرؤون في هذا العدد...))، وهي الطريقة نفسها في هذا الكتاب ((إلى صغيري، مرحبا بك مرة أخرى في رياض النصوص. ستقرأ فيه كما قرأت في السنة الرابعة.... كتابك يناديك، فكن في الموعد))، إنها عبارات الحوار والتواصل، والرفع من شأن القراءة والتلقي قصد ترسيخ عصر التعلم الذاتي الذي كرسته من جهة أخرى تكنولوجيا المعلوماتية الحديثة.

4. النص بين هوية المرجع والانفتاح على الآخر

1.4. النص التراثي وبناء القيم

تمثل هذه النصوص من حيث العدد ما يقارب العشرين نصا تستقي مادتها من التراث العربي الهادف، ذلك الذي يعالج قضايا أساسية تهم الإنسان كفرد يصارع من أجل البقاء، وهو في خضم الأهوال، تتقاذفه الأهواء والمحن، وكعضو في جماعة في حاجة إلى التعاون مع غيره، نصرة وتعاونا، إذ تُنَبِّهُ هذه النصوص المتعلمين إلى استخدام ملكاتهم وخبراتهم كالحذر والفطنة والذكاء والانتباه، استعدادا للمتغيرات والطوارئ، ومستجدات الحياة، كما يتعين عليهم أن يراعوا عند كل جديد أو تغيير في حياتهم أو هجرة يتوقعونها، أن يسبقوا كل ذلك بحذر وتفكير، وتخطيط مدرك لكل المخاطر، ثم الانطلاق في الحياة بشرف وعزة، وأنفة وتحدي الصعاب بصبر وأناة دون جزع أو خوف، بل برجاء وطموح وتوازن.

إنّ قيمة الإنسان تكمن في علمه وأخلاقه، وإغاثة المحتاجين، ونصرة المظلومين، وإيثار الآخرين، وتمجيد العمل، ومن خلال تجربة السلف يدرك المتعلم أن الحياة السعيدة هي تلك التي تقوم على العدل، والصدق المشترك بين الجميع، والنهوض بالأفراد، وتخليصهم من فشلهم، ومحاولة إنقاذهم من عثراتهم، وإدماجهم في الحياة ليتحولوا إلى صُنَّاعِ حضارة، والانتقال بهم من الكسل والفشل إلى الجد والنجاح، وأجمل ما في الحياة السعيدة، حياة تقوم على نكران الذات، ونَبْذِ أشكال الإقصاء والتهميش، وأن الناس خلقوا ليتكاملوا ويتدافعوا ويتعاونوا.

لقد استمدت هذه النصوص مادتها من الثقافة العربية والشعبية، ومن قصص ألف ليلة ولية وكلية ودمنة، وكلها تتجه إلى الحاكم والرعية، ومن النصوص التي تتأسس فكرتها على التعاون البنّاء ما يجسده نص ((قصة قرية))، ذلك الفضاء الموحش المعزول الذي انبعثت فيه الحياة من جديد فاخضرت الأرض وتفجرت المنابع وحُفرت الآبار، بفضل تكاتف الجميع وبسواعد الفلاحين، وعقول المهندسين، وأهل الرأي والفكر، والثقافة والدين فانتعشت الحياة من رحم النسيان وتَقوَّضَ الموات منحصرا بعيدا عن القرية.

يقدم الكتاب نصوصا من التراث العربي الإسلامي، وهي تعرض صفحة مشرقة لنماذج من عظماء التاريخ، تلك التي برزت في ظل الحضارة، إذ يجد المتلقي في تلك الشخصيات العلمية والفلسفية تواصلا وافتخارا، فيتعمق بهما البعد الحضاري في الناشئين، وتتعزز فيهم روح الابتكار والاقتداء.

يشعر القارئ في ظل أمثال هذه النصوص أنه قادر على العطاء، وجدير بأن يساهم ويضيف بعلمه وعمله إلى الحضارة الإنسانية كما فعل أجداده من قبل، إذ استفادوا وأفادوا، وبفضلهم عرفت الحضارات البشرية ذلك التلاقي والتلاقح بينها، وأكدت مساهمة المسلمين والعرب في تنمية وتطوير المعرفة وتشييد صروح العلم، وتحسين الحياة البشرية في مجالات عدّة؛ كالطب والثقافة والمسرح، والفن الذي عكس جمال الحضارة الإسلامية، وجمال روح من شَيّدَها، وخير مثال على ذلك ما تعكسه مدينة غرناطة الملقبة بزهرة أوربا فأين ما لاح الزائر بصره سحرته الشوارع الجميلة بقناديلها، والمدينة بعمرانها، فكانت أعظم مفخرة المسلمين في الأندلس كما جَسَّدَها نص (قصر الحمراء.

لقد كان لتلك المساهمة الأثر البارز في صنع الحضارات وتشكيلها بفضل الإنتاج العالمي المشترك، فتتكون للمتلقي فكرة العالمية بدءا من العمق العربي الإسلامي إلى الوحدة البشرية ذات التواصل البنّاء بعيدا عن كل قطبية طاغية متسلطة، إذ يظهر نص " إسحاق نيوتن والأرض" اعتراف القلم العربي بأثر الأخر في صناعة المعرفة الإنسانية بغض النظر عن جنس المخترع أو المبتدع أو لونه أو دينه، بل هو مكسب للحضارة الإنسانية.

يعود الكِتَابُ بالتلميذ من الحضارة القديمة إلى حاضره بسرعة إنجازاته، ومن المعرفة البطيئة إلى الانفجار المعرفي والتكنولوجي، والتسارع الصناعي في ثورة علمية وصناعية لا مثيل لها، إلى العالم المادي عالم الأقمار الاصطناعية تلك التي يشعر فيها المتلقي أنه قريب من كل البشر، ومن جميع الأرض، ومن فضاء السماء، وأن زمن الانعزال قد ولى بعيدا، وأن العالم صار قرية صغيرة.

ومن عالم التكنولوجيا إلى عالم الطبيعة، ومن خلال مفهوم اعرف محيطك يبدأ التلميذ ذلك بكوكب الأرض وجودا وإيجادا فيتعرف على هذه الأم التي تحتضن كيانه، وتحمي حياته، وتبقي على استمرار وجوده، فيعرف خيراتها ويقف على نعيمها، فيدرك أن كل شيء فيها غال وكنز نفيس؛ فضاؤها، نباتها، هواؤها، كائناتها، ومن ثم تأتي كثير من النصوص ترسخ فكرة علاقة الصداقة بين الإنسان والحيوان والنبات والماء، وعناصر الجمال كالقمر، ومن ثم فإن فكرة قهر الطبيعة والصراع معها تزول تماما من هذه النصوص لتطفو فكرة الصداقة والتعاون بين كل الكائنات.

إن الأرض هي أرض الجميع، ولا بديل لأحد عنها مهما كان خَلْقُهُ أو صورته أو ماهيته، والقيمة بالوظيفة والعمارة، ومن ثم جاءت نصوص من قبيل ((حارس الليل والغزال))، تلك المجموعة الكشفية التي تنجد غزالا تائها مُجَسِّدَة بإسعافها روح الإنسانية، وقيم العطف والرحمة بالكائنات الأخرى، وغير بعيد يظهر الغدير بطموحه ونقائه، وأمله في الجريان والانتقال من حال إلى حال، كما يرسخ نص ((الحمامة المهاجرة)) فكرة الانتقال والترحال، وهي تهفو خلف الحرية والسعادة.

إنّ ما يميز هذه النصوص هو ذلك التناسق الواضح والتكامل الوظيفي، فإذا كانت الحمامة ذلك الطائر الوديع يَنْشُدُ الحرية في الانتقال والحركة، تأتي نصوص حب المغامرة وروح الاكتشاف في نصوص ((ابن بطوطة)) و((كريستوف كولومبوس)) لتضع المتلقين أمام صفحة من عظماء التاريخ المجازفين، أولئك الذين عاشوا مع الطبيعة حركة ومشاهدة، فتفتح هذه النصوص نافذة على سيرتهم بعد أن هجروا

النعيم والنوم والكسل إلى عالم مليء بالمفاجآت والغرائب، وكلها تحتاج إلى شحن الهمم، وصلابة الإرادة وقوة العزائم، وأسرار من الفطنة والذكاء، فجابوا ووصفوا وعرفوا، وأضافوا إلى الثقافة الإنسانية وقربوا بين أبناء البشر.

ستصنع هذه النصوص العربية من المتلقين أفرادا بأبعاد تجاوزت الوطن واختصرت الزمن، وقاربت بين الأمكنة والأزمنة والكائنات، نصوص قدمت هوية جديدة غير هوية الوطن المحدود إلى الوطن الواسع، وتجاوزت فكرة النسب والدم إلى فكرة الصداقة الكونية إلى الرابطة الوجودية منذ بدء الخليقة ((هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَبِكُلِّشَيْءٍعَلِيمٌ)) (29) [سورةالبقرة]

2.4. النص وبناء القيم الوطنية؛ الزمانية والمكانية

يبدأ التلميذ اكتشاف وطنه وثقافته ابتداء من الصفحة 61 من الكتاب، وهو تأخير غير مبرّر بل قد أحدث خللا بنائيا ونشازا هيكليا في تقديم تلك النصوص، ذلك أن التسلسل المنطقي يبدأ وطنيا محليا، ثم إقليميا عربيا، ثم إفريقيا وعالميا، وهو تمدد طبيعي إلا أنه لم تراع هذه المنهجية البديهية، وكان لذلك أثر واضح في بناء المعرفة، فالنصوص عوالم لغوية، ومكانية وزمانية يراع فيها التدريب والتدرج، لأنّ بناء المحتويات النصية بهذه الصورة قد أحدث تشويشا ذهنيا، وتصوُّرا لدى المتلقين في ولوج العوالم النصية ومعالجتها.

إنّ أول نص وطني كان عن الجزائر أرض الجهاد والنضال وتحرير الإنسان، إذ يحتك المتلقي بالنص الكشفي، ذلك الذي عكس روح النضال واكتشاف جمال الجزائر من الداخل، ومعرفة جمالها الفطري من خلال الكشّاف الجزائري، وهو يُعَرِّفُ بنفسه وخصاله وخلاله، ويكتشف قدراته ونشاطه وجدِّه وصبره وتَحَرُّرِه، وانفتاحه بقيمه العظيمة يصاحبها التغني بحب الوطن، كما تغنى بها جيل الثورة، ولما كانت نشاطات الكشافة تهوى الطبيعة دائما جاءت نصوص أخرى من عمق الجزائر تكشف عن القارة الجزائرية بخيراتها وكنوزها، وبطبيعتها الخلابة الرائعة، والدعوة للمحافظة عليها والانتفاع بها، وضمان حياة الأخرين فيها من نبات وسهول، وغابات وحيوانات، وضمان حق الأجيال القادمة في نصيبها من الخيرات.

يأتي نص ((ليلى في أخضان الطبيعة)) إذ تَتَلَقَّى فيه البطلة رسائل سلام ومودة وأخوة وصداقة وتعايش من مختلف سكان الطبيعة؛ الأشجار، الحيوانات، الطيور، الأنهار، وكلها تشكو ظلم الإنسان وإفساده، وتترجاها أن تقوم مع أصدقاء الطبيعة لتكف المفسدين عن التخريب، وبالمناسبة يظهر في هذا المجال النهر بقيمته ونقائه، وأن الماء ثروة ونعمة ربانية، وأنه مصدر الحياة، ولا شك أن النص يحمل قيما إنسانية طبيعية تتجاوز البعد المحلي إلى الإنساني المشترك، فتأتي نصوص من قبيل شجرة الياسمين تبني في أرواح الأطفال وتصوراتهم أنّ البذرة الطيبة الجميلة تنمو جميلة وتعلو رائعة، وتنتهي إلى مذاق فتّان، ومسك عطر فوّاح.

إن الطبيعة بجمالها الفتان تصنع إنسانا جميلا في أخلاقه وعلمه وعمله، كأنه الياسمين، فينمو في المتلقين ذلك التقارب الجميل بين الطفل وشجر الياسمين، وغير بعيد تنتقل الطبيعة بأزهارها، صورة وعطرا إلى المدينة تزاحم سكانها بجمالها ناقلة إليهم حقيقة الجمال واللطف والأناقة، وبديع الألوان والصور، ومع نص ((في مهرجان الزهور)) يتعانق الجمال الطبيعي مع الجمال الإنساني في مشهدين مؤثرين شاب يحمل على ظهره عجوزا مُسِنَّة تبغي ألا يفوتها هذا المشهد، وأم شابة تحمل على كتفيها توأمين يشهدان هذا العرس الطبيعي.

ينقل النص المتلقين من الشمال الجزائري، ومن شواطئ تيبازة ومغامرات السباحة إلى صحراء الجزائر بامتدادها الواسع، فتجتمع في أرض الجزائر الفصول الأربعة بشموسها وغروبها وظلالها، وأمطارها وثلوجها، بِبَرْدِها وحرها، ببساطها الأخضر والأصفر، والأزرق والأبيض على

طول السنة، بألوان مبدعة ومن عمق الصحراء تظهر تلك المدن بثقافتها وتقاليدها العريقة، فينمو في كيان المتلقي عشق الجزائر، وتمتد روحه لتستنشق من كل بقعة عِبْقًا من أرضها، ويمتد الانتماء الوطني إلى كل شبر.

ومن النصوص التي تغرس حب البلاد ذلك النص الذي جاء بصيغة ياء المتكلم ((عاصمة بلادي الجزائر))، ومن التعريف إلى التعلق والاعتزاز بالماضي العريق، فالجزائر ضاربة في عمق التاريخ الإنساني فتبرز قصور القصبة وما يميزها من تنوع عمراني بمثابة اللؤلؤة الجزائرية ببعدها التاريخي الحضاري، ومن عالم الطبيعة إلى أعماق الثقافة الجزائرية تاريخا وافتخارا وتميزا، بهوية مشتركة، فتتلاحق نصوص كاشفة عن تقاليد الجنوب الجزائري من تمراست وغرداية، إذ يجمع الزمان بينها متى استدعي لإحيائها كأعياد الربيع والزربية، والمولد النبوي الشريف فتتواصل الأجيال، وتزداد ترابطا بماضيها الثقافي المتنوع، وتأتي لتجسد مظاهر الاحتفالات المتعددة في ربوع الجزائر الفسيحة من بلاد القبائل إلى وهران إلى كل المدن الساحلية التي ظهرت بعنوان ((مدينتي)) لتصور أي مدينة ساحلية قد تنطبق عليها تلك الأوصاف، وعلى أي مدينة كانت دون تخصيص أو ذكر لاسم مدينة معينة ليبقى العنوان عائما يتلقفه، ويسقطه المتلقي على أي مدينة، فتبرز الهوية المكانية والزمنية متوشحة معمارا فنيا يزين الساحات والشوارع والأسواق الشعبية، كما تزدان بتلك الصناعات الحرفية، وبالموانئ وحركتها الصاخبة ومن التعميم إلى التحديد مع القرية التلمسانية ((أدباغ ماقورة))، وكلها تُعَرِّفُ بالموروث الثقافي والاندماج الاجتماعي، والالتصاق بالتراث الشعبي، تجانبه هوية الأطباق الجزائرية.

ومن الجمال الطبيعي والعمق الجزائري إلى جمال الفن الجزائري إلى اليد المبدعة إلى فضاءات الحرف والمهن والتقاليد، ذلك أن الجزائر هي وليدة الرحم الأولى للتاريخ الإنساني منذ بزوغ فجره، فتأتي نصوص على شاكلة ((تبتدعان من التراب صورا)) لتجسد معالم الإبداع الجزائري والصناعة الخزفية بتميزها شكلا ورسوما تلك التي تتجلى في القلال والقدور والجرار.

تظهر على تلك المصنوعات المسحات الجمالية الممزوجة بالفطرة الجزائرية، وبهويتها المعجونة بعرق الجبين فَتَجْلِب لصاحبها كل الاحترام والتقدير، وهي تصنع نورا ساطعا من قيم العمل والشموخ، وغير بعيد يأتي النص الشعري ليبحر بنا مع النَّجَّار بأصواته وحركاته، وآماله وطموحاته، ومن جمال الأشياء، وصناعة الخشب وفنه إلى الصناعة الزجاجية وتاريخها وجمالها، ومن جمال المادة إلى جمال الكلمة والتمثيل إلى عالم الصورة إلى السينما إلى النص الذي يقفز بالمتلقين إلى ما يسبق إنتاج الفيلم إلى تلك المراحل التي تمر بها صناعة الأفلام السينمائية ليفك لغز هذا العالم المتحرك الذي أصبح يعايشه، بل صار جزءا من حياته بل عضوا في كيانه.

لقد جاءت بعض النصوص لتحرك اهتمامات المتلقي اليومية فتلامس واقعه، ومن ذلك أشهر لعبة شعبية عالمية ((كرة القدم))، فتنبهه إلى مزايا هذه اللعبة بأبعادها ما فوق الترفيه والمتعة، من مجابهة وصبر، وشرف ونزاهة، وأخوة لتقضي على ما أفرزته انحرافاتها من تناحر وتدابر بين الشعوب والمدن والأحياء، وهي تُهدد بذلك النسيج الاجتماعي إلا أن النص الأدبي التاريخي يكاد يكون مفقودا تماما إلا بنص وحيد أوحد ينفتح على التراث الجزائري القديم بنص ((خداوج العمياء.))

3.4. النص العالمي المترجم بين ثقافة الانفتاح وغاية التواصل

تكاد النصوص العالمية المترجمة تشغل حيزا يصل إلى أكثر من نصف ما تشغله النصوص الوطنية، وتكاد تجتمع هذه النصوص لتحقق غايات إنسانية مشتركة بين أبناء الكرة الأرضية، إذ تذوب فيها الإقليمية، وتنزاح الحدود الجغرافية الضيقة فيبرز نص التسامح والتعايش بين الأقوياء والضعفاء لتقريب المسافات في نص ((رسالة سلام))، وتكاد التجارب الإنسانية تكون مشتركة بين الشعوب إذ تظهر في نص ((الوعي المنسي)) نوازع الهجرة والتغيير، والاستجابة للضرورات الفطرية، تلك التي قد يتناسى مع إلحاحها الإنسان واجباته، فيقع

الانفصال وتتشكل الذوات بأثر من المحيط والبيئة، وتبرز نوازع الصراع والشر، كما قد تتشكل بفعل المحيط المشترك علاقات غريبة حين تسمو نحو التسامح والتعاون والقبول بالأخر مهما كان جنسه أو صورته أو طبيعته.

تلح هذه النصوص على فكرة التواصل بين الأجيال، والانفتاح على نماذج من التجارب التي عملت على تبديد بؤر الفساد وتدميرها بإعمال الفكر، والتفريق بين الحقيقة والخيال، والواقع والحلم والأمل، وبما أن البشرية قد عاشت نوعا من الاستلاب والاستدمار وضياع الحقوق، تلك القضايا الفطرية التي شغلت الإنسان قديما وحديثا، فكان النص الإنساني حاضرا بكل قيم العدل والحرية، والعزة والأخوة، والحق في الحياة، والعيش في سلام، والتمتع بحقوق العمل والتعليم والصحة والوقاية، وحماية الحيوان، بل في قبول هذا الأخير، الذي نراه وهو يتدخل مخاطرا بحياته لإنقاذ روح بشرية ضعيفة حاصرتها النيران كما جاء في نص الكلب ((فوكس والحماية المدنية))، وفي المقابل وبالتمثيل الإنساني استجابة لقيم العطف والرحمة تستجيب قرية بأهلها جميعا، بل يتوسع الأمر لتصبح المسألة دولية في إنقاذ ثلاثة حيتان عالقة حاصرتها جبال من قطع الجليد، وهي في فوهة الردى، فتتكاتف أيدي المتطوعين بسواعدهم، والعلماء بوسائلهم المتطورة ليلتقي الإنسان والحيوان على مسرح التعاون، وجمال الحب والعطف والرحمة، ومن التعاون بين الإنسان إلى التعاون بين البري والبحري، بين الطيور والتماسيح إلى الصراع بين قوى الشر والخير، كما يجسدها نص ((مغامرة في البحر)) لـ أرنست هيمينغواي.

إن النصوص العالمية تنتقل بالإنسان من الهم الوطني الفردي إلى الهموم المشتركة، والأشواق الواحدة، ومن ثم تتوحد الإنسانية إلى هوية الأصل الواحد إنشاء ووجودا، وغاية وهدفا، وذلك باستثمار كهوف النفس البشرية الواحدة بصورتها وكينونتها مهما تغيرت الألوان، وتعددت الأجناس، ذلك أن التكوين واحد، والإنسان هو الإنسان، وحين تتحرر البشرية من الرواسب المصطنعة عبر التاريخ الإنساني تعود إلى أصلها الأول؛ ((يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوااللَّهَالَّذِيتَسَاءَلُونَبِهِوَالْأَرْحَامَإِنَّاللَّهَكَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا (1)) [سورة النساء]

4.4. النص بين المحاورة والانفصال

إن النصوص المقدمة سالفا سواء كانت وطنية أو عربية أو عالمية مترجمة قد عُرِفَ مؤلفوها، وحددت مصادرها إلا أن هناك نصوصا تفتقد إلى هوية المنشئ جنسا ووطنا، وبذلك ينقطع حبل التواصل الإنساني بين المنشئين والمتلقين، إذ غُيِّبَ المؤلف من الفضاء النصي، فكان المتلقي أمام كون لغوي مجهول النسب، ومن ثم يقع في حيرة تأكيد وثوق الخبر، أما من حيث مضمونها فقد جاءت تؤكد مظاهر الصراع والنجاة والقوة والضعف واصطناع الحيل، كما عالجت أمراض الخمول والكسل، والضياع والفشل، وعملت على صناعة قيم الشموخ والعلو والجمال، ومن مدارس أبسط خلق الله النحل والنمل، فقد صنعت هِمَمَ الطموح الجاد في الحياة والمستقبل على أسس من الأمل والسعي والنبل والإتقان، والحلم والجمال.

وبما أن عالم الطفولة قد تنتابه مخاوف مجهولة المصادر، ومن باب إخراج الناشئة من عالم الكبت جاءت نصوص لتخلص الأطفال من تلك المشاعر الليلية المليئة بالهواجس الغريبة، والصور المخيفة، وكما أنّ الهواجس غير محددة الاتجاه والمصدر والهوية جاءت كذلك بغير سند، وفي المقابل هناك نصوص تبعث في النفوس ثقة وطمأنينة، وتُنَمِّي في الناشئة روح الشجاعة المأمونة في غير تهور وتنافس جادٍّ لخوض التجارب بعيد عن لأثرة والحسد.

وعلى العموم فإن محتويات الكتاب ثرية بالحكايات والقصص والمغامرات التي يمكن لها أن تشبع شغف الأطفال في هذه المرحلة من سنهم، إذ جاءت النصوص السردية متنوعة بين القصص الحقيقية، تلك التي يعيش التلميذ جانبا منها في حياته اليومية بالتشابه بين النثر

والشعر، أو تلك التي اتخذت لبوس الخرافة والعجائبية أو من قبيل الخيالات المجنحة التي تستهوي عالم الأطفال، وبناء على ما سبق فإن الفصل الأول يحوي أربع وحدات في شكل مشاريع، إذ تقدم في أطول فصل بالنسبة للتلميذ جاءت لتخدم مفاهيم حول القصة والحكاية وطرائق السرد والوصف، أما الوحدة العاشرة فتكاد تندمج في هذا الإطار بمشروع ((أحكي رحلة باستعمال الضمير: أنا))، إذ يعيش فيها التلميذ مع مغامرات الرَّحالة العرب والغرب، وفيها تتسع دائرة الخيال، وعلى العموم فإن نصوص هذا الكتاب تغطي مساحة كبيرة من دائرة الحكاية والمغامرة سواء من النصوص العربية أو المترجمة أو العالمية على خلاف الكتب الأخرى التي اكتفت بنصين على الأكثر، وقد رسخت فكرة المرجعية العالمية والهوية الإنسانية والوحدة الكونية بين الخلائق كلها.

يتبين من خلال المنهج الدراسي الذي يبدأ بالنص وينتهي إليه تغييب مكَوّنُ النص من دائرة الحوار مستبعدا وجوده تماما حتى أن طبيعة الأسئلة لا تشير إليه، بل قد أُقصيَ تماما من عملية القراءة وأعطيت الأولية لهذا الكيان الجديد الذي ولد بفضل المؤلف فهو الذي أوجده وحرَّرَه من العدم وأعطاه شرعية الحياة.

يأتي القارئ وهو يتبنى هذه الاستراتيجية القرائية ليمنح المؤَلِّف شهادة الوفاة انطلاقا من مقولة تَعْلِيمِيَّة تَعَلُّمِيَّة: ((أتحاور مع النص))، وليس أحاور صاحب النص، فمع تفيد المصاحبة والاجتماع والنسبة والمعية الخاصة غير المتعددة أو المتجاوزة، وهو اسم يستعمل مضافا، وبهذه العبارة الدقيقة التركيب لا ينفصل التلميذ عن النص ولا يتجاوزه إلى غيره من سياقات الإنتاج الزمانية والمكانية، فينقطع حبل الوصال مع التاريخ والمكان والإنسان وتغيب حلقة هامة من تواصل الأجيال شعورا وتراكما علميا وفكريا، وتنقطع جسور التواصل بين الأجيال، وتتلاشى الهويات وتنقرض المرجعيات.

فكيف يمكن الحديث عن حضارة دون أن نشير إلى ذلك الإنسان الذي أوجدها، وبنى صرحها، وأعلى بنيانها وأسس صناعتها؟ فهل يمكن على سبيل المثال أن نتحدث عن الأهرامات في مصر دون أن نشير إلى عبقرية الإنسان في عهد الفراعنة؟ أو أثار الرومان في البلاد العربية أو ما شيده المسلمون في الأندلس؟ فكذلك النص لا يمكن لنا أن نستبعد صاحبه أو نُقصيَه من مجال الدراسة والتنقيب والتحليل، فإن فعلنا ذلك فإننا نقصي الإنسان الذي هو محور الوجود الكوني واستبعدنا أثره وفعله، ويكون حالنا كحال أولئك الماديين، فإننا بذلك سنقصي كونا إنسانيا زاخرا بالعواطف والمشاعر والأفكار والتجارب ونكون أمام نص بلا هوية ولا نسب.

خاتمة

إنّ مكونات النص قد اختيرت بعناية فائقة، إلا أن بعضها الأخر لا يخلو من الاضطراب والنقص في بعض الجوانب التي أحدثت خللا بيّنا يمكن استدراكه ومراجعته في طبعات أخرى، أو من خلال رؤية دراسية تجمع بين النص وقائله من خلال تفعيل الدراسة التداولية التي تركز على عناصر ومكونات إنتاج النص، والمتمثلة في سياق النص الخارجي والداخلي، والمرسل والمرسل إليه، ونص الرسالة، والقصدية ونسق النص ونظامه، والغايات التواصلية والإبلاغية.

- يشكل النص مادة معرفية وعلمية تصنع أجيال الحاضر والمستقبل.
- إن الملاحظة التي يمكن أن نسجلها على كتاب التلميذ أنه أسقط عملية التواصل في جانبها العمودي، ولذلك أمامنا ما يقارب الثلاثين (30) نصا بلا هوية، فكيف يمكن لنا أن نحقق تواصلا بواسطة نصوص مجهولة المصدر والهوية والمرجع؟

– إن منهج الدراسة في كتاب التلميذ ينطلق من أساسيات تراعي تماسك النص وارتباطه وتشابكه، وعموديته وأفقيته وكليته، وبناء وحداته وتعالقها، فمعظم الأسئلة التي يواجه بها الكتابُ التلميذَ بعد أن يكون قد تواصل مع النص لا تخرج عن هذه الرؤية التي تبحث في كيان النص بناء وهيكلا وترابطا وهي بنى تحليلية تأخذ مادتها النقدية من مرجعية التراث العربي القديم، ومن النقد الحداثي المعاصر.

– إن انتباه المتعلم في هذه المرحلة لأهمية العتبات النصية ضرورة قرائية أساسية ومن ثم يتوقف هذا الإجراء بالدرجة الأولى على الأستاذ عن طريق توجيه أسئلة دقيقة وموجه لتحديد الهويات النصية.

– يلاحظ على الكثير من النصوص أنها انتقلت بالمتلقين من الهوية الوطنية العربية إلى الهوية الكونية مكانا وزمانا أرضا وفضاء، ذلك أن الإنسان من شدة خوفه على كيانه وامتداده، وبما أن الخوف لا وطن له فقد أصبح هاجسه الوحيد حماية الكون من المخاطر، كتهديد الأرض بحروب كونية، وتقلبات المناخ والاحتباس الحراري وانقراض الكائنات واختلال التوازن الطبيعي والمجاعة، وتهديد المذنبات كما جاء في نص ((مذنب هالي)) والتهديد النووي.

جاءت معظم النصوص لتعيد ترتيب الأشياء، وتُحَسّنَ تنظيم العلاقة بين الإنسان والكون، وتقيم كل ذلك على صداقة الإنسان مع سائر الكائنات، من نبات وحيوان، وتأكيد روح التعاون والتحاور، وامتزاجه مع الكائنات الأخرى في صور من التعاطف والتراحم الإنساني للحفاظ على الفضاء المشترك، وأن الأخوة الإنسانية الكونية تحفظ الأرض ومحيطاها، وأن التعاون البشري وهو يتجاوز الجنس واللون كفيل بالمحافظة على الأرض ومحيطها.

– إنّ معرفة الأخر والاستفادة منه ضرورة كونية، ومن ثم جاءت بعض النصوص تلفت الانتباه إلى هذه القضايا المشتركة، وتكوين الجمعيات، الوطنية والدولية، والعالمية متجاوزة الحدود الجغرافية لتقدم خدمات إنسانية، وفي المستقبل قد يكون الانتماء عالميا بهوية إنسانية مشتركة.

– تحاول هذه النصوص أن تجعل المتلقي عنصرا إنسانيا متجاوبا مع الكون كله، محبا للإنسانية متعاونا معها، وفي نفسه شعور بمرجعية عالمية وهوية إنسانية ووحدة كونية.

– يكاد التأسيس للهوية والمرجعية الوطنية بأبعادها العربية والإسلامية والأمازيغية منحصرا ومحدودا غير كاف، ولهذا يجب تدارك ذلك بنصوص أكثر تدعيما للمقومات الوطنية.

قائمة المراجع والمصادر

1. إبراهيم دلمخي، (1983)، ط1، الألوان نظريا وعلميا، ص: 69، حلب/ سوريا، مطبعة أوفست الكندية.
2. أكرم أنطوان قطاس، (1949)، الرمزية والرمز في الأدب العربي الحديث، ص: 93، بيروت/ لبنان، دار الكتاب.
3. جوليا كريستيفا، تر: فريد الزاهي، مراجعة عبد الجليل ناظم، (1997)، ط2، علم النص، ص:21، الدار البيضاء / المغرب، دار توبقال للنشر.
3. حسين خمري، (1425هـ/ 2007م)، ط1،ص: 09، نظرية النص، ((من بنية المعنى إلى سيميائية الدال))، الجزائر، منشورات اختلاف.
4. خالد حسين حسين، في نظرية العنوان مغامرة تأويلية في شؤون العتبة النصية، دار التكوين، د.ط.ت، ص: 5.
5. رولان بارت، تر: فؤاد الصفا، وحسين سبحان، (1988)، ط1، لذة النص، ص:62-63. المغرب، دار توبقال للنشر.
6. زينب عبد العزيز العمري، (د/ت/ط)، اللون في الشعر العربي القديم، ص: 19، القاهرة، الأنجلو مصرية.

7. ساسين عساف، (1982)، ط1، الصورة الشعرية ونماذجها في إبداع أبي نواس، ص: 30، بيروت/ لبنان، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر.

8. سعد عبد الرحمن قلج، (1975)، جماليات اللون في السينما، ص: 44، القاهرة، الهيئة المصرية للكتاب.

9. سمير شيخاني، (1984)، ط6، علم النفس في حياتنا اليومية، ص: 133، بغداد، مكتبة الشرق الجديدة.

10. شامل عبد الأمير كبة، (1992)، اللون: النظرية والتطبيق، ص: 71، بغداد، مطبعة الأديب البغدادية.

11. صالح ويس، (2014/2013م)، ط1، الصورة اللونية في الشعر الأندلسي، ص: 124، عمان/ الأردن، دار مجدلاوي للنشر.

12. عبد الحق بالعابد، ت: سعيد يقطين، (1429هـ/2008م)، ط1، عتبات، (جيرا جينيت من النص إلى المناص)، ص: 13، الجزائر، منشورات الاختلاف.

13. عبد الرزاق، بلال، (2000)، مدخل إلى عتبات النص، دراسة في مقدمات النقد العربي القديم، ص: 15، بيروت/ لبنان، أفريقيا الشرق.

14. عبد الملك مرتاض، (1992)، دراسة سيميائية تفكيكية لقصيدة "أين ليلاي"، لمحمد العيد آل خليفة، ص: 57، الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية.

15. عمارة ناصر، (2007)، ط1، اللغة والتأويل، ص: 168، الجزائر، منشورات اختلاف.

16. عمر عبد الواحد، (2003)،ط1، التعلق النصي، ص: 39، المينا / مصر، دار الهدى للنشر، المنيا.

17. فارس متري ظاهر، (1979)، ط1، الضوء واللون، بحث علمي جمالي، ص:54،بيروت، دار القلم.

18. فارس مسرحي، (2006)، ط1، الحداثة في فكر محمد أركون، ص: 111، الجزائر/ لبنان، منشورات اختلاف، الدار العربية للعلوم – ناشرون.

19. فرج عبو، (1982)، علم عناصر الفن، ص: 136، ميلانو إيطاليا، دار الفن للنشر.

20. كتابي في اللغة العربية (2016/2015) للسنة الخامسة من التعليم الابتدائي، ديوان المطبوعات المدرسية– وزارة التربية الوطنية – الجزائر–

21. كتائب حسن عبود الدوري، (2003)، اللون في شعر الهذليين، ص: 13، جامعة الكويت.

22. ليندة قياس، (1430/ 2009)، ط1، لسانيات النص، النظرية والتطبيق، ص: 18-19- القاهرة، مكتبة الآداب.

23. محمد عزام، التلقي، (2007)، ط1، التلقي والتأويل، بيان سلطة القارئ في الأدب، ص: 129، دمشق، دار الينابيع، طباعة، نشر، توزيع.

24. محمد مفتاح، (1992)، ط3، تحليل الخطاب الشعري (استراتيجية التناص)، ص: 120، المغرب، المركز الثقافي العربي.

25. محمد يوسف همام، (1970)، ط1، اللون، ص: 09، مصر، مطبعة الاعتماد.

26. محي الدين طالو، (1991)، الرسم واللون، ص: 171-172، دمشق، مكتبة أطلس.

27. مصطفى ناصف، (1995)، اللغة والتفسير والتواصل، ص:241، الكويت، المجلس الوطني الكويتي.

28. نصر حامد أبو زيد، (2008) ط7،مفهوم النص، دراسة في علوم القرآن، ص: 09، البيضاء/ المغرب، المركز الثقافي العربي.

29. يحي حمودة، (1979)، نظرية اللون، ص: 136، القاهرة، دار المعارف، القاهرة.